المحكمة

بقلم : عبد العال الحامصى

قاعة المحكمة مكتظة بناس ذوى اشكال واحجام مختلفة .. لا شيء مشتركا بينهم سوى شراهة الفضول . وانا ضائع فى القفص الحديدى «أهرش» خرجا ملتفتا فى ساعدى الأيسر ، واتأمل وجوههم بشتى الانفعالات البادية عليها وهم يحملقون فى بشراهة حتى لأنوهم بعضى كائنا هلاميا قذف به الى الارض احد الاطباق الطائرة "

نظراتهم تعريني . تبدو وكأنما توشك ان تنقض على وتفترسني . نظرات دائبة بعضها تطل منه الحيرة.

[illegible] لى . وبعضها لا يكتم العداء له وامرأة بدينة أخرجت ثديها المترهل من فتحة جانبيه فى ثوبها المتسخ وطفقت تلقمه رضيعها الملفوف فى « قماطه » الذى تناثرت عليه « ربالته » ! .. وتهمس فى أذن جارتها الصغيرة بكلام غريب تتحدث عن الخديعة . و « القلب » الذى شربته . والقلوب التى تحجرت فى هذا العالم !!

مقلب .. وخديعة .. عن اى مقلب تتحدث المرأة البدينة ؟!

خدعت .. ربما .. أخذوا يخدرونى بكلماتهم الضخمة . الشرف . العار . التقاليد كرامة العائلة .. رجولتى .. وواجبى .. ! ان احتمال اعدامى لايهولنى بقدر ما يعذبنى احساسى بانى تخليت عن القيم التى كنت افخر بها . . ومن أجلها واجهت الكراهية والعذاب . كيف استجبت لهم هكذا بلاهة ؟ كيف !

وأراحت المرأة البدينة ثم رضيعها وبدت حلمة الثدى محمرة ومنورمة من الامتصاص .. اقذعتنى الى حد القيان ! مازالت النظرات تلاحقنى .. وددت لو كان بيدى سيح ملتهب ألقيه به جميع تلك العيون المصوبة نحوى كأنها فوهات بنادق ..

لماذا لا يتهمون .. وما فائدة كل هكذا .. قتلتها واعترفت .. فما جدوى أن يعرضونى هكذا لعيون الآخرين بنظراتهم المسمورة ؟

قتلتها .. سلوى .. اختى المدعة العاتية .. القلب الذى كان يعطينى الحب .. والحنان والمشاركة .. قتلتها بوداعتها وصباها .. كيف بدى انتزعت

وهم يعرضونه على .. وترددت .. انا اتعرض على هذه المهمة ؟ غريبة انا من بين جماعتهم الثقة فى انى سأوافق .. منذ متى كنت رجلا فى نظرهم .. دائما كانوا يعتبروننى « خرعا » لا يصلح لمواقف رجولة .. دائما كانوا يبعدوننى عن مشاكلهم ومعاركهم مع العائلات المنافسة لأنى فى نظرهم لا اصلح الا لممتشيط شعرى . وقراءة المجلات .. دائما كانوا يسخرون من طراوتى التى تشبه سلوك بنات الذوات .. ! عندما كنت صغيرا اذهب الى الحقول مع اطفال العائلة كان أبناء اعمامى يعايروننى كلما وجدونى قد استعرقت حالما اصعى لخرير الماء فى الجداول . أو اربت بيدى فوق رؤوس الكلاب بينما يمارسون هم العابهم الصبيانية ويتربصون بنادقهم للذئاب فى حقول القصب .. أو يقومون بعمليات سطو على الحقول المجاورة ليسرقوا البطيخ .. أو يلقون وراعة من يخطف الكبار معهم .. !

حتى « حليلة » صغرى بنات عمى الأكبر كانت تمسك بخصلات شعرى وتكشها « وتكشها » فى سخرية لتؤكد بانى تماما أشبه امى .. نعم .. لم يكن أحد ينادينى ابدا باسمى .. كانوا ينادوننى على الدوام بقولهم « ابن سميرة » .. ابن امى !!

فمن أين أتتهم الثقة فى انى يمكن ان اصبح بطلا هكذا بلا مقدمات لافتل .. واختى بالذات .. وهم يعلمون فرط حبى لها وشغفى بها .. قلت لهم أننى لا استطيع ان اكون قاتلا مهما كانت الأسباب .. وقذف بها حسن ابن عمى متهكما . الم اقل لكم .

كنت اتوقع ذلك .. ذيل الكلب لا يمكن ان يتعدل ابدا .. حضرته يتمنع بس يكتب سواويل !! ولكره مني في جيبه معترضا .. وانطلق يردد الاسطوانة .. العار كلام الناس .. شرف العائلة .. وواجبي .. فليس هناك من هو احق مني بازالة هذا العار .. وترددت .. أحني وليالينا .. والعشرة .. وقلبها الذي يحتوي افراح انتصاراتي .. واشجان هزائمي اي حنون سوف لي الموافقة ...

كانت مستلقية فوق فراشها وتحت رأسها وسادة يتمرغ فوقها شعرها الفاحم المتموج وقد استغرقت في قراءة قصة مترجمة من تلك القصص التي كانت مولعة بها .. ودخلت عليها بهدوء وانا اغلق الباب خلفي واحاول السيطرة على اعصابي .. لاندو طبيعيا بينما سوس التردد ينخر في مشاعري. نظرات الي وحسمت الأمر مجرد هموم صغيرة كتلك التي تعودت ان اقصي اليها بها ..

ـ مالك ياوجدي .. زعلان من امه؟

ـ ابدا يا سلوى .. معنش حاجة .. شوية صداع بس .. خلصني الرواية .. اصل « مدحت » عاوزها .. سالني عليها ..

ـ انوه قريت .. على فكره مدحت ماله اليومين دول مش عابر بيجي عندنا كمان ملاحظة أن تصرفاته مش طبيعية خالص ..

أكد لي تهافت نبراتها في سؤالها عنه ومبعث اللهفة الذي شع من عينيها عندما سمعتني اذكر اسمه صدق مارعموه لي عني عندما به .. ان الحطابات التي وقعت في ايديهم هذه الحطابات لاتؤكد وجود علاقة آثمة .. انها تتحدث عن الحب والاشواق واحلام الغد .. وعندما طلب لهم هذا قالوا في وجهي .. حب .. ! ومنذ متى كانت عندنا بنات تحب .. ! واحدوا يؤكدون لي بان قرار قتلها قد وافقت عليه العائلة باجمعها .. وان مهمة التنفيذ اذا كانت قد العيب على عاتقي فاني اجدر العائلة بذلك .. وان عارها يلحق بي قبل اي واحد منهم .. فاذا امتنعت فليس معنى هذا ان يظل القرار .. فالبلده كلها تتهامس بالفضيحه .. واين يمكن لرجال « عائلة الشرقاوي » ان يحملوا شوارهم .. سيتعقد القرار قمت بالمهمة أم ابيت .. وفي هذه الحاله ستظل العائلة انها تبرات مني .. لا ياحسن .. لن ادع يدك القطة تمسها .. بيدي انا تموت .. لابيدك انها الخلف المورور .. لن ادعك تقتلها ياحسن .. لن ادعك تتعبي عليك منها لانها رفضت بشجاعة وكبرياء ان تتزوج من وحش مثلك .. لا يا حسن لن تكون نظرتك الشامتة المتوحشة آخر ما تراه سلوى في هذا العالم ! » .. ودنوت منها كانما لارى الى اي صفحه وصلت في قراءتها .. وفجاة وفي جنون ولاحسم التردد الذي هذا يعزف ارادتي امسكت بخصلات شعرها والى الخلف لويت رقبتها .. واغمدت السكين حتى المقبض في صدرها .. وتفجر الدم .. الدم .. الجنون الاشباح .. عقلي .. قوة ماتتوقعه . طبقات من الضباب تتراكم فوقه .. وسلوى تتدحرج من فوق سريرها .. تتلوى عارقة في دمها .. وفي نظراتها

كالمتاف . ولا حقد !! وانى تحيط السماء الذى احكمت رتاجه حين لكره ..

ـ احنا مسلاحين يا امه .. وصنايده ! ..

ـ عملوها فيك يابنى .. يا خراب بيتك يا سميره .. سلوى .. حبيبتى .. كبدى انا امك يا حلوه .. كلمينى يا سلوى .. ردى على ماما يا سوسو ..

واحتضنها بالدم تبكى وتصرخ فى التاع وتعرق . وتعمر راسها فى بلاط الحجرة الذى اصطبغ بدمها . تطفر من اعماق اشلاء . فاجرى مذعورا .. مهمولا .. ثم اعود لاتهالك على الجسد الراكد فى دمه وقد سكنت تماما اختلاجاته .. اغمله .. الشعر الوحشات الشعر .. الصدر .. فى جنون . ثم انهض واجرى من جديد واعود لاحبط فى الجدار راسى .. وتتراءى الصحة ولا اعود اسمع شيء .. عربة البوليس تقلنى والقيد فى رسغى .. وصرخات امى تلاحقنى .. وعويل الجيران .. والاشلاء . واحتى عارقة فى دمها "

***

والذكريات .. موت ابى برصاصات معاديه اطلقها عليه احد خصوم العائلة انتقاما لثار قديم .. والكراهية التى كانت تواجهنى من عائلة ابى الذى تزوج بزعيمهم من قاهرية غريبة اجبها وهو يطلب العلم فى الازهر تاركا امه عمه التى كانت مخطوبة له .. كانوا يكرهوننى بعذوبة من اجل ان تصعد تؤامراتهم .. واحلامى .. وزملائى فى الجامعة الذين كانوا يسخرون منى .. من «سعيديتى» وتحفظى وانطوائى . والبنات اللواتى كنت ارتبك امامهن ويبر وجهى عرق الخجل لو سألنى احداهن عن موعد المحاضرة .. او طلبت منى ان اعيرها كراستى ، والقصائد كنت اكتبها وانشرها دون روحى .. وعرسى .. ورسائلى المحررة بمحبة سائبة فى نفس الوقت والتى كانت حلم عمرى ولكنى اصمتها بخجلى وتحفظى وخوفى من حيرتها المتحدية . والكتب التى كنت اعيش معها اكثر مما اعيش مع الحياة ! كانت الكتب عالمى . والاغنيات التى كنت اسمعها بكل ذرة فى كيانى والدموع فى قلبى . وليلى مراد .. التى كنت اعشق صوتها واتخيل انى سألتقى بها ذات يوم وتحبنى .. مع اغانيها كانت روحى تجد دنياها "

ودلفت الى « العبر » كان ملئا بالمساجين من عمار مختلفة .. وقبعت فى صمت تحت جدار بدون ان التفت اليهم .. وهرع الجميع يسألون ما حظى .. كنت تائهة .. سلوى بدمائها كانت امامى "

ـ دا .. باس عليه دوانى " قالها احدهم وابتعدوا عنى "

فى الليل انطلق المساجين يتبادلون تواريخ عن ادهم الشرقاوى .. وحسن وخيمة .. ثم اعادوا كل « شلة » فى ركن تتوتر حول « الصبى » والبق .. والشاويش عند الباسط والبنت ذات العشرة اعوام التى احدثت ثار ابيها ..

ويسألونى احلك شيئا .. هل حاجة وحليها على اللى فوق.. ولا أجيب ..

ـ أمال .. كنت فاكر السجن ايه !! سيما يا روح امك ! ..

فالها سجين اخور .. ومن جديد ابتعدوا عنى

واندفع الحاجب يهدر .. «محكمة» فى انتباهة منتبهة .. لامرور لهما اطلاقا .. وتطلع الجميع الى المنصة ماعداى .. كنت مشغولا احدق فى وجه المرأة السمينة وهى تتحول بنظراتها القلقة ما بين هيئة المحكمة والقفص الذى يحتوينى .. غريبة .. لم اعتر لم تتفحص لرؤية هيئة المحكمة .. ربما لأنى وطنت نفسى على كل الاحتمالات ! نظرت الى القاعة وقد وفد اليها آخرون .. بينهم اعمامى .. عمى الأكبر . هذا العتل الأشيب بلحيته الكثة .. ومسبحته .. كم ابغضه .. حج بيت الله الحرام ثلاث مرات ويقتل القتيل ويسير فى جنازته . لقد علمت امى كثيرا بكرياته وتعاليه .. لم يصغ لها ابدا انها تزوجت أبى برغمه .. عمى .. أنا على استعداد لأن أخلد فى الجحيم مقابل ان يدعونى الآن التقط دقته هذه .. شعرة .. شعرة .. وامى .. امى لماذا لم تأت لماذا .. انى احتفظ بدموع لا اريد ان اذرفها الا عندما تأتى ..

وقام رجل مليط الأطراف .. صارم الوجه وظل يتكلم طويلا عن الجريمة وبدلالة دوافعى اليها .. والفضيحة البريئة .. الوهرة المنقعة التى سحقتها بحسة قروية لمطامعى فى التركة .. ثم انطلق يملو تقرير الطبيب الشرعى مؤكدا بان فعلتى لا يمكن ان يكون الانتقام الشرف هو سببها .. ولهذا فانه يناشد المحكمة فى الا تأخذها بى شفقة ! .. لم يحنقنى عليه كونه طالب باعدامى .. انها مهمته .. مورد رفقه للعيش عشماوى .. غاظنى منه حذلقته .. وضغطه على كلمات صليحه معينة .. وكونه مالك يسقط الى طبلة حواجته وكانتى فى نظره لا اكثر من حشرة !

وأمر الرئيس باحضارى الى المنصة واخذ يستجوبنى وانا صامت كأنما يوجه اسئلته الى انسان لا يعقلنى .. وغاظه برودى فاحدث لهجته تشنج وصوته يتوتر فى حنق ..

وأخيرا ولمجرد أن اتخلص من الموقف قررت أن أقول شيئا ..

ـ كل ما اعرفه انى قتلتها ... قتلتها .. لأرث التركة وحدى دبرت الأمر على ان تظل الجريمة مجهولة . لم يكن فى خاطرى ان ضرجات امى ستأتى بالخبران .. وسرت فى القاعة همهمات ناشزة .. وبدا منى المحامى يهمس فى اذنى ان هذا التصرف من جانبى بمثابة الانتحار .. لكن ! ..

وعدت من جديد الى القفص .. المرأة السمينة تنظر الى فى دهشة واشمئزاز نظراتها الحائرة تحول لى . انت تكذب .. فلماذا ؟ ما الذى يدعو هذه المرأة لأن تحملق فى هكذا .. ولست ابنها .. ولا حتى أعرفها ؟ لقد عشت لا أبغض شيئا قدر أن يرثى لى

المرط .. ومعاملتها لى وكانى شىء هش يكسره هبوء .. وعندما يهض المحامى الكهل الموكل للدفاع عنى بصيت لو ان اطلق العنان لرغبتى فاطلق مقهقها .. فثمة شىء يثير الضحك فى منظره وهو يقف بجسده النحيل .. ووجهه الذى تعرت عروقه وروبه المهدل .. وقد اطلت من وجهه الشاحب كآبة تندد بالعالم كله .. واخذ يترافع مناشدا المحكمة بان بلا تقسو بلا الى اعراق الاحمرق .. حقا انى قتلتها .. ولكن الامر ليس كما اقول هو الطمع فى استحواذى على التركة .. لان الطريقة التى ارتكبت بها الجريمة من السذاجة بحيث لاتتناسب ابدا مع تفكير مجرم طماع يرسم خططا .. واستطرد يقول بانى قتلتها وانا مسلوب الوعى .. وكنت ضحية مؤامرة .. وانطلق يحمل على اعدائى مؤكدا بان الانصاف يقتضى بان يكونوا هم الان فى القفص وليس انا .. فقد اقنعونى بعلاقتها التى لم تكن اكثر من حب عنيف بين شاب حامى ثل وفتاة مثقفة تواجهها تقاليد عفنة وتسمو حياتها خلف أسوار من قيم عطلة .. اقنعونى بهذا بدافع الحقد المتاصل الذى يكنونه لنا .. ليضربوا عصفورين بحجر واحد تموت هى ويكون السجن مصيرى انا .. واسدل على مثل شاعريتى وحساسيتى .. صدفه تكونه لا محالة الى الانتحار .. اما الأم فما ايسر الخلاص منها .. وبهذا تقع التركة الضخمة جاهزة فى ايديهم ..

« أهذا هو المقلب الذى كانت تتحدث

هذه الحقيقة .. كيف لم تخطر على بالى .. لم يكن فى خاطرى أمام تصميمهم الا ان مسألة التقاليد هى التى تدفعهم .. كيف غابت عنى هذه الحقيقة .. كيف ؟! »

واستطرد المحامى يواصل دفاعه .. لقد استغلوا احساسى بانى كنت دائما موضع سخريتهم لعاطفتى ورقتى .. فعرضوا على دور بطولة استجبت له بلا وعى وبلا فهم .. حيث انطلقت كل الروائب القديمة .. كل العقد .. تسوقنى من الداخل لأرد اعتبارى فى نظرهم ولو بالجريمة مبررا فعلتى أمام نفسى بانها ستقتل حتما فمن الأفضل ان تقتل بيدى ! .. ونهضت اطالبه بان يطلق عنى .. لا يهمنى ان يظهرنى فى وضع الجبان الذى اراد أن يكون بطلا فى نظر الذين كانوا يعاكسونه برجاولته لا يهمنى ذلك فهذا لم يخطر على بالى .. ثم انها مسألة تخصنى .. ولكن كيف يؤكد للمحكمة فعلا علاقة احس بحبها .. مهما كانت هذه العلاقة بريئة .. هنا لا يعرفون علاقات بريئة اوغير بريئة .. لا اريدهم يعتقدون بان هذا هو سبب مصرعها .. أهون عندى أن أموت من ان تلوك الالسنة شرف سلوى .. ولم يهتم المحامى باهاتى وانطلق يضرب على نفس النغمة .. ومن جديد طلب منى الرئيس ان اتقدم .. وتكلمت ..

كذبت كل ما قاله المحامى .. مصرا على أن الدافع فقط هو الطمع فى التركة .

وعاد المحامى يوضح سبب اصرارى هذا .. ثم قدم للمحكمة دفتر مذكراتى الذى كنت ارصد فيه انطباعاتى ومشاعرى عن الاذلال الذى كنت اعانيه من ابناء عمى منذ كنت صغيرا .. وفى المدرسة .. وفى المجتمعات لاحساسى بأن ثمة شيئا فى سلوكى يثير دهشة الآخرين .. وقد وضع خطوطا حمراء تحت العبارات التى كنتها فى فترة الصراع النفسى التى سبقت الجريمة وهى تؤكد فى نظره دور أعمامى فيها .. والدوافع المشتركة التى ساقتنى لقتل الانسانة التى أعبدها .. وختم مرافعته مناشدا المحكمة بأن تضع كل تلك الملابسات فى اعتبارها ! .. ورفعت الجلسة للمداولة ..

عرم على الشرطى الأسود الذى يقف بندقيته أمام قفص سجارة فاغتدرت شاكرا .. مازالت المرأة البدينة تنظر نحوى وتوشك الدموع أن تطفر من عينيها .. ومازلت حاسة ثديها فى فم رضيعها .. كلما ازاحت فمه عن ثديها انطلق صراخه فتسكته بوضع الحلمة من جديد فى فمه .. امى .. لماذا لم تأت امى .. لماذا ؟..

وعادت هيئة المحكمة .. ونطق الرئيس بالحكم الذى يقضى بادانتى عشر سنوات مع الأشغال لأن المحكمة وضعت فى اعتبارها الظروف المحيطة بالجريمة ..

عشر سنوات .. فى السجن ! .. رايتنى رابطة حاشى .. شعرت بالانهيار والضياع .. عشر سنوات يطاردنى دم سلوى .. وهمس فى اذنى .. « مالك ياوحيدى » عشر سنوات .. امى .. لماذا لم تأتى .. عذرا لك يا امى قتلتها لك .. ولست مجرما .. صدقنى يا ماما .. لست مجرما .. وانطلقت دموعى .. والمرأة البدينة .. منذ لحظات كانت نظراتها تلدغنى .. الان اريدها .. تقول لى نظراتها بأن هناك من يشفق على وسالم لصغيرى .. والتقت عيناى بعينيها كانت الدموع تنهمر على خديها .. والرضيع يمتص ثديها .. لكم أود أن اعانقها .. أن اعفر عن عيناى لحظة واحدة بين احضانها .. ودنت تهمس فى اذنى :

— ولدى .. الله معك ..

— سيدتى .. لست مجرما ! ..

— أنا لا افهم شيئا .. ولكن .. فلمن يقول لى هذا ؟

جاء عمى فى هذه اللحظة .. وعندما اقترب من القفص كانت بصقتى قد غادرت رذاذها فوق ذقنه كزغوات صابون صغيرة ..

— سيدتى .. هل تعرفين امى .. قولى لها أن تغفر لى ..

نظرت الىّ طويلا وانحدرت تبكى ..

— يمكنك يا ولدى أن تضع ثقتك فى الله ..

نظرت اليها وفهمت .. لم أجد دمعة واحدة .. وامتدت يد المرأة تلامس جبهتى .. وفتح الحارس القفص واخرجنى ودفعونى الى عربة كانت فى الانتظار ..